الفصل الأول
في نسب إسطفانوس الدويهي
وفي ذهابه إلى مدرسة روما إلى حين عودته منها
١٦٣٠ – ١٦٥٥

إن العائلة الدويهية من أقدم عيال إهدن ولها بقية إلى يومنا هذا في هذه القصبة ونزح أفراد منها إلى مجدل معوش وإلى بيروت[١] وإلى الذريب في عكار. قيل انها قدمت إلى إهدن في أوائل القرن الخامس عشر وربما قبل ذلك واستوطنت من قرى لبنان أشهرها موقعًا وأحسنها منظرًا وأطيبها هواء وأشدها شعبًا قرية منّ عليها الباري بنعم الأرض والسماء وأجرى فيها المياه الغزيرة حتى انه خيّل لكثيرين انها عدن أو الفردوس الأرضي وفيها قوم بواسل يهابهم القريب والغريب فطروا على التقى ونبغوا بالذكاء والعلم وخرج منهم بطاركة ورؤساء ورجال سياسة وقادة وأبطال وحسبهم شرفًا أن لا يذكر أحد قريتهم إلا بادر إلى ذهنه اسم البطريرك إسطفان الدويهي ويوسف كرم، كلاهما فخر لبنان والطائفة المارونية.

أما العائلة الدويهية فقد ولد منها أساقفة وبطاركة نذكر منهم المطران يعقوب الذي أقام في دير مار سركيس راس النهر (١٥٠٣) والمطران قزما قس مطران إهدن (١٥١٣) والمطران سركيس الذي سكن أيضًا في مار سركيس (١٥٦٥) والمطران جبرائيل في زغرتا (١٥١٩) والمطران جرجس عميرا الذي صار بطريركًا سنة ١٦٣٣[٢] والمطران باسيليوس مطران إهدن الذي يدعوه البطريرك إسطفان ابن عمه (١٦٥٩) والمطران جبرائيل مطران صيدا (١٦٩٣) والبطريرك إسطفان والمطران إسطفان الثاني (١٧٢٧) والثالث (١٨١٠)[٣].

https://patriarchdouaihy.com/
Marobite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

---

[١] سمعنا أنّ بيت أبي قاسم الروم الكاثوليك منها. وبيت قشوع وغيرهم.

[٢] كانت أمّ البطريرك جرجس بنت المطران سركيس الدويهي (١٥٦٥).

[٣] وقد عثرت على بعض إفادات عن الدويهيين علقها على كتاب قداس خطه بيده المطران اسطفان "الثاني" الدويهي (في مدرسة ريفون) وهذا نصها بالحرف:
سنة ١٧٠٤ في ٣ أيار انتقل إلى رحمة الله البطريرك اسطفان وكان انتقاله في دير قنوبين الكرسي.
سنة ١٧٠٥ توفي والد الخوري يوسف "اظنه ابن أخي البطرك" أول كانون الأول في عندقت في بلاد عكار.
سنة ١٧٠٦ في ٢١ تشرين الثاني ارتسمت كاهن من يد المطران جرجس الكاروز (وتسمى يوسف باسم أبيه وأصل اسمه صالح).
سنة ١٧٠٩ في ٣٠ حزيران توفي أخي شماس فرنسيس في كفرحي في بلاد البترون.
سنة ١٧١٢ في ٢٩ آذار قبلت وظيفة البرديوطية على كنيسة مار مخائيل طرابلس من يد المطران جبرائيل.
سنة ١٧٢٣ في ٢٥ تموز توفي أخي خوري وهبه وكانت وفاته في طرابلس.
سنة ١٧٢٧ في ٩ شباط توفيت بنتي هيلانه في مدينة طرابلس.
سنة ١٧٢٨ في ٢٠ تشرين الأول ارتقيت إلى درجة المطرانية في دير مار شليطا على كرسي البترون من يد قدس السيد النبيل البطرك يعقوب عواد الحصروني.
انتقلت إلى الله والدتنا في زغرتا.
انتقل إلى رحمة الله أخي خوري عبدالله.
انتقلت إلى رحمة الله بنت بنتنا غاليه في ٥ تموز سنة ١٧٥٣.
انتقل إلى رحمة الله ابن أخينا شدياق جرجس.
انتقل إلى رحمة الله أخي تادرس في ١٠ أيار سنة ١٧٥٨ وكان انتقال في دير ريفون في كسروان. اهـ.
(والمطران إسطفان المذكور توفي في دير ريفون في تلك الآونة).

أما الحوادث التي طرأت على هذه العائلة فقد حفظ لنا ذكر بعضها في مخطوطات البطريرك إسطفان منها انه سنة ١٣٥٠ رقي إلى المطرانية على إهدن برضا أهلها الراهب انطون ابن الحاج فرحات الحصروني لأن أمه كانت من الطائفة الدويهية وهو تربى عند أخواله في دير مار يعقوب وسكن في يدر مار سركيس رأس النهر[٤] وكان يعرف العربية والتركية جيدًا فأرسله البطريرك موسى العكاري لتأدية واجب الخضوع للسلطان سليمان الثاني حين قدومه إلى مدينة حلب وبنى كنيسة السيدة في دير مار سركيس ولما تعدى أحد مطارنة الروم على حقوق بطريرك الموارنة وجمع العشور من الموارنة في بلاد عرقا وعكار أقام عليه المطران انطون الدعوى وحكم على مطران الروم وأجبر على ترك عشور رعيته في تلك البلاد سبع سنوات إلى أن يأخذ مطران الموارنة ما ذهب من حقوقه.

وسنة ١٥٧٢ استولى المسلمون على الأوقاف والأديار وجعلوا أرزاقها بكليكًا ولما خربت الأرزاق والأملاك ألزموا أصحابها بدفع ثمنها ليستفكوها ومن تعجّز عن ذلك أكرهوه على الدفع بالسيف عنوة كما جرى للدويهيين الذين كانوا متولين أوقاف دير مار سركيس ومار بطرس في إهدن وحكموا على القس موسى بن يوسف الدقيق فأرسل المطران سركيس بالموت على الخازوق ثم استفك دير مار سركيس بيت الجاموس قضاة طرابلس واشتروه من إدارة البكليك وبعد ذلك اشتراه الدويهيون[٥].

سنة ١٥٧٧ كانت وفاة المطران سركيس الدويهي قال عنه البطريرك إسطفان: كان ركنًا حصينًا وراعيًا ذكيًا واعتنى بإرشاد النفوس وبناء الكنائس والأديرة. استمر في الرئاسة اثنتي عشرة سنة إلا شهر واحد. وخلف قبل الأسقفية خمسة بنين ما عدا البنات وكلهم خدموا البيعة وأفادوا المؤمنين وهم الخوري عبيد والخوري جرجس ولاقس يعقوب والحاج إسطفان الراهب والحاج ابرهيم.

أما القس يعقوب الدويهي خال البطريرك جرجس عميرا فكان ساكنًا في يدر مار يعقوب واشتهر بتعليم الأولاد وتلمذ نحو مائة كاهن منهم البطريرك يوحنا الصفراوي والبطريرك جرجس، السابق

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Ehden Zgharta

[٤] هذا الدير من الأديار القديمة في لبنان وأظن أنّ الوقف المثبت في فهرس المكتبة المديشية لإسطفان عواد السمعاني ص ٣٤ يشير إليه سنة ١٥٠٩ يونانية (١١٩٨ م).

[٥] وفي سجل الدويهي بخط يده ص ٧٦١: في السنة المذكورة (٩٨٠ هجرية) في اليوم العاشر من جمادى الآخر ناصر الدين غلبي بن كرامة بالوكالة عن علي غلبي افندي صاحب الولاية الشامية اشترى من الشيخ شهاب الدين خطيب البرطاسية وقف كنيسة رأس النهر في قرية إهدن بخمسة عشر سلطاني وسنة ١٦٠٢ أقيم المطران مخائيل من بيت عبيد ابن أخت المطران يوحنا على دير مرت مورا وأراد أن يمكث مع خاله في دير مار سركيس فلم تقبل بذلك العائلة الدويهية فحرق صك الدير الذي كان عند خاله فنزلوا إلى طرابلس إلى المفتي ابن الجاموس وكتبوا صكًا آخر عن رزنامة المدينة.

ذكره، قال عنه الدويهي: أعطاه الرب أناة الروح والخيرات فأعطى من ماله لدير قنوبين أربعة آلاف قرش فضة. اهـ.

أما إسطفانس الدويهي فهو ابن الشدياق مخائيل ابن القس موسى ابن يوسف الدقيق ابن القس موسى ابن الخوري يعقوب ابن الحاج ابراهيم الدويهي. ولد في قرية إهدن في اليوم الثاني من شهر آب سنة ١٦٣٠ يوم تذكار إسطفانس رئيس الشمامسة وأول اشهداء. فدعاه والداه باسم هذا القديس كعادة كثيرين من المسيحيين الذين يختارون شفيعًا لأولادهم أحد القديسين الذين تكرمهم الكنيسة يوم ولادتهم. واسم أمه الحاجة مريم وكانت من العائلة الدويهية أيضًا. وكان له أخ واحد يعرف بالحاج موسى، رزق ثلاثة بنين وهم الخوري مخائيل والقس يوسف والحاج قرياقس.

كانت ولادة إسطفان الدويهي في أيام الأمير فخر الدين المعني الذي نشر على الجبل اعلام الأمن والراحة وسهل للموارنة الإقامة في كسروان والمقاطعات الجنوبية وبناء الأديار فيها. وكان إسطفان ابن ثلاث سنوات لما توفي أبوه مخائيل الدويهي سنة ١٦٣٣ وتركه يتيمًا. لكن الرب ظلله بجناحيه واعتنى به كالأم الحنون لأنه أعده ليكون إناء مختارًا ويحمل اسمه بين الشعوب.

وفي السابع والعشرين من السنة المذكورة جلس على الكرسي الانطاكي البطريرك جرجس عميرا. وصار ضيق عظيم واضطهاد على الكرسي البطريركي على أثر الحروب التي وقعت آوانئذ بين الأمير فخر الدين وآل سيفا. وسنة ١٦٣٨ نهب الأمير منصور ابن سيفا دير قزحيا وسلب كل ما وجد فيه وأذاق المطارين والرهبان أمرّ العذابات البدنية.

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

أما إسطفان فمنذ نعومة أظفاره أرسلته أمه إلى مدرسة القرية لاكتساب العلم والأدب وكان التدريس في ذلك العصر مقصورًا على معرفة اللغة السريانية وأصولها وإتقان الكتابة بحروفها وعلى معرفة مبادي الديانة وطقوس كنيستنا المارونية وقد تذكرناه حين زرنا إهدن وشاهدنا أولادها في دار كنيسة مار ماما يصيحون مترنمين على هجاء اللغة العربية والسريانية في ظل الأشجار وفي حمى ذلك الهيكل القديم.

قال البطريرك عن نفسه: منذ الصبا سلمنا والدنا إلى القراءة السريانية. ا. هـ.

فسبق أقرانه وأظهر سمو عقله مذ ذاك الوقت ومال كل الميل إلى العلم. وكان انصبابه على الدرس مشفوعًا بالتقوى كأنه أدرك من صغره ان العلم ليس بشيء بدون خوف الله. وعشق العلوم

حسب قول مؤرخ حياته البطريرك سمعان عواد فاختاره البطريرك جرجس عميرا الإهدني وأرسله إلى مدرسة الطائفة في رومة العظمى.

ولا بد هنا من التلميح إلى مناقب هذا البطريرك الغيور المفضل على علامتنا الدويهي فانه كان ابن مخائيل بن عميرا من إهدن وأمه الحاجة بسطا بنت سركيس القس موسى الدويهي[٦] تهذب في مدرسة رومة وصنف اغرمطيقًا مطولاً للسريانية وبرهن عن أقدمية هذه اللغة على سائر اللغات واشتهر اسمه في رومة وتعين له معاش سنوي إلى آخر حياته وبعد رجوعه إلى بلاده ارتقى إلى رياسة الكهنوت وجلس على كرسي إهدن ثلاثًا وثلاثين سنة واقتنى له أرزاقًا وكان يرشد شعبه في طريق البرّ ويعول الأيتام. ثم ترجم للأمير فخر الدين المعني كتاب هندسة في بناء الأبراج فعفى الأمير المومأ إليه أرزاق كرسيه من دفع الخراج القانوني. وبعد أن جلس على السدة البطريركية نحو عشر سنوات توفاه الله بشيخوخة صالحة سنة ١٦٤٤[٧] وروى الدويهي انه لما توفي البطريرك يوحنا الصفراوي وأتوا بجثته ليدفنوها في مغارة القديسة مارينا شوهد جسد البطريرك جرجس محفوظًا بغير فساد لا ينقصه سوى الروح والنطق دليلاً على طهارة سيرته ونسك حياته.

ومن الذين خبروا إسطفانس وسعوا بتسفيره إلى رومة المطران الياس الإهدني ويسميه البطريرك سمعان عواد عمه وهو المطران الياس بن يوحنا من عائلة الصراصرة من إهدن أقيم مطرانًا على كرسي إهدن سنة ١٦٣٨ بعد وفاة المطران عبد الله الإهدني وهو الذي فتح سوق القلعة الشرقي بقرية زغرتا وضمه إلى الكنيسة وكانت وفاته سنة ١٦٥٩ وخلفه في إهدن القس بولس ابن القس بولس عبيد ابن الأسقف سركيس الدويهي[٨] فسافر إلى رومة فقرأ على القس سمعان التولوني[٩] والشماس يوسف فتيان الحصروني وكلاهما من تلامذة المدرسة الرومانية ومع ثلاثة تلاميذ آخرين أي يوسف الرامي من رام البترون الذي عرف برومة بالسم بولس التولوني وأخيه بطرس وهما ابنا أخت القس سمعان المذكور وبطرس ابن القس ابرهيم من بيت اميه من إهدن وهو ابن عم إسطفان الدويهي[١٠].

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

---

[٦] وبيت عميرا انقطعت سلالتهم من إهدن وقيل أنّ بعضهم نزح إلى مجدل معوش.

[٧] عن الدويهي.

[٨] عن تاريخ الأزمنة.

[٩] كان من رهبان مار أنطونيوس وعنه يقول الياس الغزيري في النرجلية التي وضعها لتلاميذ مدرسة رومة:
قسيس سمعان تولاني، كان قديس بالرهباني، أريده يطلب من شاني، حتى أنجو حتى أنجو من الخطية قبره في بشعله موجود، في لزق الحائط ممدود، في كنيسة العذرا أم الجود، يشفي وجع البردية قبره يقصده الأعوام، والموجوع فوق منه ينام، يومًا واحدًا من الأيام، يشفي من كل بلية قبل موته في يوم واحد، انباه الله على واكد، كهنة هل ضيعه تشهد، ومعهم أكابر مسمية وهو كان معروف من سيرته، ومن اتضاعه ومن غيرته، حافظ قانون رهبنته، الطهاره والعفية وقد ذكرته مجلة المشرق في العدد ١٧ (ص ٧٧٠) سنة ١٩٠٣ وأثبتت رسمه فراجعها.

[١٠] يوسف الرامي بعد أن درس سنتين الفلسفة حكم عليه الأطباء بالرجوع إلى بلاده فبرح رومة في أوائل الخريف سنة ١٦٤٩ ولبس إسكيم مار أنطونيوس ورقي إلى درجة الكهنوت وعلم الأحداث في عشقوت وبسكنتا وقبرص وبيت شباب وبنى دير مار جرجس بحردق في أرض بيت شباب وأقيم بردوطًا عليه وفيه توفي في أوائل عام ١٧٠٢. وأخوه بطرس تزوج في بيت شباب ومات فيها. أمّا بطرس ابن القس ابرهيم الإهدني فكان عمره عشر سنوات لما ذهب إلى رومة وبعد أن درس الفلسفة واللاهوت الأدبي عاد إلى بلاده

وكان وصولهم إلى رومة في شهر حزيران سنة ١٦٤١. وكانت المدرسة زاهرة محترمة لدى أهل العلم في البلاد الغربية لأجل الخدمة التي قام بها تلامذتها منذ تأسيسها وقد أنشأها البابا غريغوريوس الثالث عشر ذو الذكر الصالح الذي أبدى للشرقيين عمومًا ولطائفتنا المارونية بالخصوص انعطافًا أبويًا. وإذ علم حاجة كنيستنا إلى كهنة متفقهين ورؤساء غيورين أمر أن تقام لنا مدرسة في عاصمة الكثلكة تحت رعاية وحماية الأحبار الرومانيين خلفاء زعيم الرسل وكان ذلك سنة ١٥٨٤ وكان مساعدًا له في هذا المشروع الخيري الكردينال انطونيوس كرافا الذي له من الفضل والمآثر لا يمحو ذكره كرور الأجيال وكان يحب المدرسة المارونية حبًا جزيلاً حتى انه وقف عليها جميع متروكاته. فأتت هذه الحديقة المقدسة بأثمار صالحة وبرز من هذا المعهد رجال اشتهروا بسعة العلم وعظم الفضيلة نخص منهم بالذكر اسحق الشدراوي ويوحنا الحصروني وجبرائيل الصهيوني الإهدني ونصر الله شلق العاقوري وجرجس عميرا وابرهيم جرجس الحلبي اليسوعي الذي مات شهيدًا وابرهيم الحاقلي ومرهج نمرون الباني ما عدا الملافنة الفطاحل الذين خرجوا منها بعد الدويهي. وأمر البابا غريغوريوس المذكور بطبع الكتب اللازمة لخدمة الجلال الإلهي ولفائدة المؤمنين منها كتاب القداس الشبية والمزامير. الخ. وقد لمحنا إلى أعماله الخطيرة وان أبعد من ذلك عن موضوع كلامنا لاعتقادنا ان الاعتراف بجميل المحسنين أمر واجب وهو من الفضائل المرضية لله والممدوحة من الناس. وإجمال هذا الحبر المغبوط أوشكت أن تنسى وهي جديرة بأن تكتب بأحرف ذهبية على صفحات قلوبنا لتعدد ذكرها مدى الأحقاب.

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Eden-Zgharta

هذه هي المدرسة التي قدم إليها إسطفانوس وكان ابن إحدى عشرة سنة ولا ريب انه وضع نصب عينيه مثال من سلفه من التلامذة الكجتهدين فحذا حذوهم في ممارسة الفضيلة والكد باقتباس العلوم. وقبله فيها الأب ترويلس بسكويتوس الروماني اليسوعي[١١] الذي كان وقتئذ رئيس المدرسة[١٢] وأدخله بين التلاميذ وهوّن عليه صعوبات الغربة وسهّل له السلوك في عوائد كان يجهلها وقوانين لم يألفها في مدرسة إهدن. فنجع فيه اعتناء الرؤساء وعكف على الدرس بكل ما فطر عليه من الحماسة الإهدنية وسبق رفاقه وفاقهم وبالحق قال عنه سمعان عواد في ترجمة حياته انه سبقهم "على شبه النسر الذي يفوق كل الطيور بالطيران... وكان يلالي بين أولاد المدارس كالشمس بين الكواكب". وكان اجتهاده في الدرس مقرونًا بعبادة حارة زادها العلم رونقًا

بأمر الأطباء واقتبل الكهنوت المقدس وسكن دير مار قبريانوس في إهدن وكان ذا خط جميل في الحرف العربي والسرياني والافرنجي ولذلك عينه البطريرك إسطفان كاتبًا عنده ثمّ رقاه في ٢١ تموز سنة ١٦٨٠ إلى مطرانية صيدا بحضور ومعاونة المطران جرجس حبقوق البشعلاني والمطران يوسف شمعون الحصروني وسلك بكلّ تقوى ونشاط ثمّ مرض في البهلولية من أعمال اللاذقية حيث كان منفذًا من البطريرك لزيارة الرعية فحملوه إلى وادي صفرا حيث مات في اليوم السادس من أيار ١٦٨٣.

[١١] إنّ المدرسة كانت تحت تدبير آباء الرهبنة اليسوعية الأفاضل وكلّ ما نتج عنها من الخير كان بسعيهم المتواصل وعنايتهم النيرة.

[١٢] ترأس إدارة المدرسة من سنة ١٦٣٨ إلى سنة ١٦٤٤.

وصار لها العقل أساسًا وسراجًا. وكان إسطفانس لين العريكة رقيق الطبع وديعًا متصفًا بكل ما يستميل الناس ويجتذب محبة القلوب. فهذه السجايا الحميدة هي هبة من الله للمصطفين تأخذ كمالها من كمال العمر وترسخ في النفس مع نمو الفضايل المسيحية فيها وهي التي جعلت إسطفانس معتبرًا محبوبًا من الجميع فحسبه إخوته كالكبير بينهم معترفين بسمو عقله مكرمين فضائله لا يقاومه أحد منهم ولا يعارضه معارض. قال أحد مؤرخي حياته انه كان ينمو كالسوسن جامعًا لطف الأخلاق وطيب عرف الفضيلة وطهارة السيرة والسريرة.

أما معلموه وبمقدمتهم الأب ترويلس المنوه به فبعد أن اختبروه وعرفوه بنوا عليه آمالاً كبيرة لاطلاعهم على باطنه وظاهره. وأتقن إسطفانس درس اللغة اللاتينية وأحكم الفصاحة والعلوم المنطقية والرياضية بيد أن كدّه واجتهاده في سبيل العلم والمعارف سبب له مرضًا أوقفه عن الدرس ولما تعافى عاد إلى ما كان عليه قبلاً من الاجتهاد. قال سمعان عواد: ذكر لنا هو نفسه انه كان يواظب الدرس والعلم في كل آن وفي كل مكان حتى في الأماكن العامة – يريد بها الأسواق وشوارع المدينة – وفي وقت اللعب والتنزه. وكان يقوم في الليل وينوّر سراجه ويقرأ بعض الأوقات ساعة أو ساعتين أو ثلاث أو أربع وما زال يفعل هكذا حتى عدم بصره. ا هـ. فحزن معلمه البادري ترويلس لما شاهده في هذه الحالة لا يقدر يطالع ولا يكتب ملازمًا غرفته. وطال المرض كثيرًا فاحتمل إسطفانس كل ذلك بصبر وفرح ولم يشق عليه سوى شيء واحد وهو اضطراره إلى الانقطاع عن الدرس والقراءة فاحتال على المرض بهذه الحيلة وهي انه كان يستدعي بعض رفاقه ويكلفهم أن يتلوا عليه ما ألقي على مسامعهم وبهذه الواسطة لم يخشر شيئًا ولم يفته قضية مما كانوا يسمعون بل كان يفسر لهم ما غمض عليهم. وفي غضون ذلك كان المرض يقوى دون أمل شفاء قريب. فلما رأى ذلك رئيس المدرسة همّ بإرجاعه إلى لبنان فعلم إسطفان بقصده هذا واعتراه غمّ لا يوصف كجندي جرح في بدء المعمعة وأمسى عاجزًا عن خدمة وطنه أو كرجل يرى بغتة خيبة آمال كبيرة لعلة لا دواء لها ولا مناص منها. ولما درى أن العلاجات والوسائط البشرية لم تنج التجأ إلى تلك التي لا يعسر أمر على شفاعتها القديرة ولساعته نزل إلى الكنيسة وخرّ أمام أيقونة العذراء مريم وابتهل إليها من صميم فؤاده ونذر لها نذرًا ألزم ذاته به إن التمست له الشفاء من ابنها المجيد. وفي الحال بعد أن فاه بنذره رجع نظره إليه وصار أحسن مما كان قبل ابتلائه بالمرض المذكور. ومنذ ذلك اليوم لم يفقد شيئًا من حدة نظره طول حياته رغمًا عن اكبابه على الدرس والتأليف إلى آخر أيامه وشهد بعض من عرفه أنه في شيخوخته كان يقرأ الخطوط الدقيقة دون نظارات. وكان لشفائه فرح عظيم عند الجميع وقدموا معه الشكر لله تعالى ولتلك التي استجابت دعاه كالأم الشفوق. أما النذر الذي أوجبه على ذاته

https://patriarchdouaihy.com/ Maroaite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

فلم يخبر أحدًا به. وطلب إليه كثيرون من أصدقائه فيما بعد أن يكشفه لهم فأبى وكان يقول انه شيء يسير وكان يظهر الانذهال كيف أن البتول قبلته ومنت عليه بالشفاء لأجله.

هذا حدث إذ كان إسطفانس في منتصف مدة دروسه ي لما كان في صف الفلسفة. ولما أتم درس الفلسفة سعى بإقامة محاورات كما هي العادة في المدارس الرومانية. وقد أخبرنا البطريرك نفسه في رسالة أنفذها سنة ١٧٠١ إلى الأب بطرس مبارك الشهير[١٣] عن هذه المحاورات انها كانت انقطعت في مدرستنا فأخذ يسعى بتجديد عادتها لما فيها من فوائد للطلبة ومن حسن السمعة في الخارج وطلب ذلك بإلحاح من المعلمين ومن الجنرال أي رئيس الرهبنة اليسوعية العام. وجعل الاجتماعات المشار إليها تحت حماية السيدة الطاهرة. وأخذ التلاميذ يجتمعون في أوقات معلومة ويعطى لبعضهم أو لكل منهم موضوع ينشئه ليلقيه على مسامع الحاضرين ويرد على المعترضين مدافعًا عن رأيه لكي يعتادوا بهذه الطريقة إبراز تصوراتهم وأفكارهم بالكلام الصحيح الفصيح والوقوف في محضر الناس ناهيك عما يرافق هذه الحفلات من الراحة والتنشيط للأولاد.

ولما أتم الدروس الفلسفية سنة ١٦٥٠ جرى عليه الفحص على الطريقة المألوفة في الكليات أي ان التلميذ يثبت قضية ما وبعد إثباتها يعترض عليه المعلمون ومن شاء من الحاضرين وهو يرد اعتراضهم فان نجح حاز الإكليل ومأذونية التعليم وإلا لا. إسطفان يخبرنا انه قام بهذه المحاورة على اسم الكردينال كابون يعني بذلك أنها جرت تحت حماية الكردينال المذكور وربما برئاسته والقضية التي وضعها إسطفان في هذه المناسبة حظيت باستحسان الحضور وأمر الكردينال المومأ إليه أن تنشر بالطبع[١٤] ومن هذه المناقشة المدرسية عرف كثيرون ما كان عليه إسطفان من الذكاء والنباهة وذاع صيته في البلاد الإيطالية وأثنى عليه كل من سمعه وسمع به حتى قيل انه لم يكن له شبيه في إيطالية وان الله لم يمنّ على أحد من أقرانه بما منّ عليه به من العقل وانه أدرك من المعارف ما لم يدركه أحد منهم. فحصل من ذلك للمدرسة شرف عاطر وطارت سمعتها بين أهل العلم. وقد أثبتنا هذا كله مستندين على شهادة البطريرك سمعان عواد غير مبالين بما قد يكون فيها من الغلو.

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

[١٣] كتب هذه الرسالة سنة ١٧٠١ ليأخذ منها مختصر ترجمة الدويهي ويصدر بها تآليفه التي التي كان نقلها إلى اللاتينية وعزم على نشرها بالطبع. وسنأتي بذكرها كثيرًا.

[١٤] هذا عنوان الكريريسة:

Conclusiones philosophicæ EE. Principi Aloysio S.R.E. Cardinale Capponio a Stephano edenensi… dicatæ. Romæ, 1650.

إن سياق الدروس في المعاهد الأوروبية يجعل الفلسفة إكليل العلوم الأدبية وأساس العلوم الإلهية وبعد أن يضعوا الأساس العقلي يشرعون ببناء برج الوحي الحصين فيكون الشاب ألف الاقيسة المنطقية وأدرك قوة البراهين العقلية وصواب الاستنتاجات منها فلا تزعزعه أرياح الصعوبات ولا تخدعه آراء الضلال ومذاهب المفسدين. ولما تقدم إسطفانس لدرس الإلهيات كان عقله مسلحًا ومهيأ بكلما يوطد آمال النجاح وكان قلبه مزدانًا بتلك الفضيلة التي أعطي بها للإنسان أن يعاين الله ويدرك أسراره الخفية ولم يلق اتكاله على المواهب الطبيعية التي كانت فيه بل على الكد والاجتهاد فصار مثالاً لمن يغوص في بحور العلوم طالبًا جواهرها النفيسة. ولم يمض سوى يسير من الزمان حتى أدهش الجميع بذخائر حكمته وكنوز مداركه وكان البادري اسبارسا معلمه الذي تعاطى التدريس في معاهد عديدة وفي كثير من مدن أوربا يقول انه لم يتلمذ له أحد نظير إسطفانس وكثيرًا ما كان يفوض إليه إقامة المحاورات في المحافل التي تصير في المدارس. أما نمط هذه المحاورات فهو الآتي: على أحد الطلبة أن يثبت أولاً ببراهين وجيزة قضية ما فيقوم بعض السامعين ويدحض رأيه بما أمكن من الحجج ويعترض عليه بما يفحمه أو يقنعه. فيطلب من المدافع أن يكون سريع الخاطر لئلا تفوته الصعوبة والاسترسال في الجواب لئلا يقع في إشراك خصمه. ولا يخلو موقفه من كل خصوصًا إذا عارضه الأساتذة أو تحاملوا عليه رغبة في إعلان براعته أو إخجاله. وأحيانًا يأخذ المعلم بناصر التلميذ ويسهل له إدراك المشكل أو وجود الجواب عليه. قال البطريرك سمعان عواد الذي كان في رومة وعرف عوائد مدارسها: إن معلمي إسطفانس لم يضطروا قط إلى الأخذ بناصره لما كان يجادل بل كانوا يتركونه وشأنه يجاوب الأساتذة الفقهاء وكانوا يفتخرون بانتصاره عليه وبرد اعتراضاته وبمدافعته عن رأيه وكل من حضر هذه المحاورات كان يعجب من ذكاء إسطفانس ويمجد مواهبه بالعقول والمواهب. وكان كل مرة نوى إنشاء محاورة علمية يشيع خبره ويتناقله الرومانيون كما يتناقلون أخبار حفلات الأعياد التي تصير في معابدهم الكثيرة. وبعضهم كانوا يتركون أشغالهم ليسمعوه ويشهدوا بسعة معارفه. وقد أخبرنا البطريرك إسطفان أنه لما أتم درس الإلهيات سعى بإقامة محاورة كما كان فعل في منتهى الدروس الفلسفية واختار لهذه الحفلة رئيسًا شرفيًا البطريرك يوحنا الصفراوي[١٥] بطريرك الطائفة وقتئذ مظهرًا بذلك تعلقه بالطائفة ورؤسائها.

ولما أنهى الدروس القانونية لم يسافر حالاً إلى لبنان لكنه تأخر نصف سنة إلى أن وجد رفيقًا للسفر وفي هذه الفرصة أخذ يطوف مدارس رومة ومكاتبها ويفتش على كل ما فيه ذكر للموارنة من تآليف الأقدمين وكتب الحديثين وكان شرع بهذا العمل وهو تلميذ إذ كان يتردد على المكاتب

[١٥] البطريرك يوحنا من بيت البواب من قرية الصفرا من الفتوح.

http://patriarchdouaihy.com/ Marouite Patriarchat Eparchy Ehden Zgharta

أيام العطلة بدلاً من الذهاب مع الآخرين إلى المنتزهات والجنات وكان في المدرسة مجموع كتب خطية ثمينة قديمة العهد أهداها إلى المدرسة رؤساء الطائفة السالفين أو قدمها لها التلامذة بعد خروجهم منها شهادة على تعلقها بها وطمعًا بأنها تصان في رومة بحرص لم يألفه سكان لبنان وأدياره[١٦].

أما إسطفانس فلم يترك مؤلفًا إلاّ وطالعه ولا مصحفًا إلاّ وتصفّحه ليجد فيه ذكرًا للموارنة وكان ينسخ كلما عثر عليه من الفوائد. وعلى هذه المخطوطات المتنوعة وغيرها كان اعتماد البطريرك إسطفان في كتابة تواريخ الطائفة ودفاعه عنها وفي رد تهم الأخصام بغيرة كغيرة إيليا وتدقيق لم يفقه به أحد.

وبعد أن ضمّ سلعته هذه وجمع تلك الكنوز الأدبية همّ بالرجوع إلى الوطن. وقبل أن يبارح أم المدائن عيّنه المجمع المقدس مرسلاً رسوليًا وخصّص له معاشًا وصار ذلك بعناية ذاك الماروني الهمام ابرهيم الحاقلي الشهير. وكان سفر إسطفانس في الثالث من نيسان سنة ١٦٥٥. إلا أن كثيرين من الذين عرفوه وأحبوه وتعلقوا به لفقوا يرغبونه في أن يبقى في أوربا ويغرونه بتوفر الوسائط هناك لمن كان مثله هائمًا بالدرس والتأليف لأنّ خزائن مكاتب الغرب كانت محشوة كتبًا شرقية لم تنشر ولم يوجد باحث عنها وكان بعض الموارنة المتقدمين كالحاقلي والصهيوني والحصروني اقتطفوا من حدائقها مقالات شتى وكتبًا نفيسة مفيدة فلم تغرّه كنوز هذا المعدن بل فضل الاجتهاد في خلاص بني جبلته على فخر العلم وشرف التأليف وتكريم الناس. وروى سمعان عواد أن بعض الرهبان كانوا يتنازعون إدخاله في رهبنتهم. وقال أحد مؤرخي حياته أن الآباء اليسوعيين بذلوا الجهد ليربحوه فلم يحصلوا على نتيجة. ولينا نورد هذه الأخبار على سبيل اللوم والانتقاد بل إيضاحًا لما كان عليه إسطفانس من رفيع المنزلة في عين الجميع. وزد على ذلك ان آباء المجمع المقدس طلبوا أن يبقى عندهم بصفة معلم الفلسفة والإلهيات. وان أحد كبار الرومانيين سأله أن يمكث عنده ويأخذ لقاء أتعابه مبلغ أربعين قرشًا كل شهر فلم يلتفت إلى كل ذلك ولو صنع لفاق السماعنة شهرة وحاز اعتبارًا لا نقدر نصفه. لكننا نقول مع أحد مؤرخي حياته: ان كل هؤلاء لم يعلموا إلى ما كان الله يدعوه. فلو لم يأت ويسوس طائفتنا ويجمع تواريخنا ويحفظ طقوسنا وينقح كتب بيعتنا ويخبرنا كيف كنا في القرون الغابرة ويردّ على الذين ادّعوا انّا خرجنا عن الإيمان الصحيح وعن الحظيرة الكاثوليكية لكنا أتعس الناس أمة نجهل ماضينا

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchate Patriarchy Ebdeo-Zgharta

[١٦] ولهذا عز وجود المخطوطات القديمة في بلادنا من كتب الطقس والتواريخ وما كنا لنأسف على ذلك لو بقيت مدرستنا الرومانية وسلمت كنوزها. إلاّ أنّه لما تلاشت في عهد دخول نابليون بونابرتي إلى رومية أي سنة ١٧٩٨ تشتت شمل مصاحفها وتفرقت كنوزها وقيل أنّ معظمها محفوظ إلى اليوم في خزائن البروباكندا أي مدرسة مجمع نشر الإيمان وفي المكتبة الواتيكانية. والله اعلم.

وأصلنا ومعتقدنا القديم وتقلبات الدهر علينا. فسقيًا لك يا من وصلت الماضي بالحاضر واختطفت من أيدي النسيان والدمار تاريخ أمتك الكريمة وأفحمت الأعداء برد كل ما اتهموها به من الأضاليل فانك اخترت المشقة مع شعب الله وفضلتها على الراحة والإكرام واعتبرت عار المسيح غنى أعظم من كنوز مصر لأنك كنت تنظر إلى الثواب الدائم[١٧] وإلى عمل الخير الذي فيه مجد الله الأعظم. أما في هذه الدنيا فثوابك شكرنا ومحبة قلوبنا واستمطار غيوث الرحمة على عظامك وعلى الأحشاء التي حملتك وعلى كل من تعب وسعى لتكون ما كنت.

وقبل رجوعه من رومة صنف كتابًا في الفردوس الأرضي في اللاتينية وقد شرع بتأليفه لما كان تلميذًا وكان يخطر على باله وطنه وبلدته وكل ما جملها الله من سوابغ الخير وسعة العيش والراحة فوهمه قلبه انها هي عدن أي الفردوس وان الأنهر الأربعة التي خلقها الباري لتسقي الجنة الرضية هي مياه تلك الينابيع العذبة التي تنحدر من أعالي لبنان وتجعل أرض الجبة خصبة طيبة المناخ وان الأرز الذي عزّ وجوده خارجًا عنها انما هو بقية الأشجار التي نصبتها يد الرب كما قال أحد الأنبياء.

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

[١٧] عبرانيين ١١/٢٥- ٢٦.